(٣)

الجنيه المصرى .. عزيز «يذله» قومه* !

من مواهبنا القومية التى نعتز بها ونحرص على إبرازها هى القدرة الخارقة على التخريب. كل شىء جميل تقع عليه عيوننا أو تمسه أيدينا المباركة لابد أن يتحول إلى هشيم وحطام .

الشجرة الجميلة نقطعها ، والزهرة الباسمة نقطعها ونلقى بها على الأرض وندوسها بأقدامها.

والشارع الجميل لا نستريح إلا إذا جعلناه مزبلة.

والأوبرا نشعل النار فيها ونجعلها كوم رماد. والمدرسة تصبح جنة للمشاغبين.

والجامعة تصبح مصنعًا لإنتاج الأميين والمتعطلين.

والجنيه المصرى العزيز نضغط على رأسه حتى يغوص تحت الماء.. ويموت ويموت فى شارع من شوارع فرانكفورت وقفت وفى جيبى ورقة ذات عشرة ماركات.

كان أمامى عمل كثير وكنت أقول لنفسى لا داعى لتغيير عملة، فهذه الماركات العشرة تعدل بحساب بلدة أربعة جنيهات ، وبأربعة جنيهات فى بلدك تقضى كل حاجات يومك وتتغدى إذا شئت.

وبعد مشوارين صغيرين كانت الماركات العشرة قد تلاشت وبدلت دولارات لأتغدى وأقضى بقية مصالحى.

وفى آخر النهار ، وعندما أرحت جنبى فى الفندق جعلت أحاسب نفسى فروعنى الحساب ، لقد أنفقت فى يومى هذا ستين ماركا من هذه

---

* نشرت هذه المقالة فى ١١ أبريل ١٩٨٢م .

العملة التى يقال إنها أصلب عملة فى الدنيا ، وستون ماركا هى بالسعر الجارى أربعة وعشرون جنيها مصريًا ، أنفقتها كلها غير حساب الفندق.

هل تتصور ماذا كنت أعمل بأربعة وعشرين جنيها مصريًا فى مصر؟

وجعلت أهزّ رأسى وأقول: يا خسارتك فينا أيها الجنيه ، والله إنك لرجل محترم ولكننا نحن غير محترمين ، فأنت عمرك كله حتى فى أيامنا السود كلها مازلت عملة محترمة فى بلدك ، مازلت قويًا عزيزًا بين عملات الدنيا ، ولكننا نحن «هزأناك» وهبطنا بقدرك كما هى حالنا مع كل شىء يصل أيدينا - ولو كنت عملة الألمان لظل لك عزك واحترامك فى الدنيا كلها ولبقيت مكانك حيث كنت من الذهب .

فقد كنت أيها الجنيه عندما خرجت إلى الدنيا تزيد على الجنيه الاسترلينى قدرا وقيمة ، وفى أول رحلة إلى أوربا ، وكنت أقدمك لشباك البنك فيناولونى جنيها إنجليزيا وشلنا فوقه ، وفى سويسرا كانوا يعطوننى فيك ستة عشر فرنكا كاملة وكان صراف البنك يضرب لى ولك «تعظيم سلام».

يا خسارتك فينا أيها العزيز..

لا عيب فيك والله إلا نحن! نحن أصحابك ضيعناك وأقللنا قدرك بين عملات الأمم.

وفى نيويورك خرجت من الفندق فى الصباح ومعى دفتر كامل من الشيكات السياحية كل صك بعشرة دولارات.

وذهبت لأستبدل بعضا منها من صراف الفندق ، لاستبدلت ثلاثة من الشيكات بدولارات وأنا أقول فى نفسى: ثلاثون دولارا تكفى لنفقات اليوم والغد.

فقال لى رفيقى وهو أمريكى:

– إذا كنت تريد أن تقضى كل الحاجات المكتوبة فى برنامج عملك فإننى أنصحك بأن تستبدل صكوكًا بما قيمته خمسين دولارًا فستحتاج إليها كلها.

– ليوم واحد..؟

– نعم ليوم واحد

– وفعلت كما قال فهو أعلم منى بحال بلاده .

ومضينا فى قضاء حاجاتنا: من الفندق إلى مكاتب اليونسكو فى نيويورك ومنها إلى جامعة كولومبيا ، ثم تغدينا فى مطعم صغير مجاور للسترتال بارك ، وفى العصر اشتريت تذكرة لمشاهدة مسرحية فى برودواى وفى الليل كانت الخمسون دولارا قد تهاوت فلم يبق منها إلا القليل ، وفى مرورى بقاعة النروبوليتان – وهى أوبرا نيويورك – قرأت الأسعار فلم أصدق عينى ، وكان صديقى قد مضى لشأنه ، فقلت لنفسى: لا داعى لشهود حفل المتروبوليتان ، وأمشى على قدمى إلى الفندق وأتعشى بجبن وفاكهة وقرب الفندق لمحت كتابًا جديدًا عن جون شتاينبك ، وهذا الرجل هو المفضل عندى فى كتاب أمريكا ، فاشتريته ، وبدلت لذلك صكين آخرين بعشرين دولارا.

وفى التاسعة مساء كنت جالسًا فى غرفتى إلى التلفاز آكل عشائى المتواضع وأحسب حسابى ، وتوقفت عن الطعام ، فقد وقفت اللقمة فى حلقى وقلت:

– سبحان الله سبع وسبعون دولارا فى يوم واحد. إن بدل السفر الذى أعطونى إياه سيتلاشى بعد غد فقد كنت أحسب أننى سأدخر منه.

وفيما أنا أتفرج وأتغدى صلصل جرس التليفون ، ورفعت السماعة فإذا صوت نسائى يقول:

● مساء الخير يا مستر فلان (اسمى) يسرنا أن تكون معنا فى هذا الفندق ، هنا مكتب البل – بوى فى الفندق وأنا مس جين لا أدرى ماذا ، هل يريد السيد أن يرى فيلمًا بديعًا على فيديو الفندق.

– وما هذا الفيلم.

– فيلم لن تراه إلا فى هذا الفندق إنه فيلم خاص جدًا وسيبدأ عرضه بعد عشر دقائق.

– وهل هذا الفيلم هدية من الفندق؟

– نعم ، ولكننا نقدم لك معه كأسًا من الويسكى بالماء أو بالصودا – كما تحب – أو كأسًا من المرتينى مع زيتونة أو بدونها كما تحب – والاثنان معا بعشرين دولارا.

– أى اثنين يا آنسة؟.

– الفيلم والكأس.

– ألم تقولى أن الفيلم هدية..

– نعم.. ولكن الفيلم بدون الكأس لا معنى له ولهذا فقد جعلناها – إكرامًا لضيوفنا الأعزاء – حزمة سرور واحدة (وإن بليجار باكيدج) بهذا السعر المخفض.. هل أرسل لك مندوبتنا بالكأس.. على فكرة أى الكئوس تريد؟..

– يا آنسة جين أنا لا أريد لا الكأس ولا الفيلم واعتقينى لوجه الله.

– أوكى مستر.. ستأسف على ذلك القرار المتسرع. طابت ليلتك.. رقمنا ١٩ إذا أردت أن تراجع نفسك..

ووضعت السماعة وقمت فأحكمت رتاج الباب ، وجلست أتأمل التلفاز وأقول لنفسى – سبعة وسبعون دولارا ضاعت فى الهواء فى يوم واحد..

هذه خمس وستون أو سبع وستون جنيها مصريًا غير حساب الفندق ، لو كنت فى القاهرة لقضيت كل ما قضيت فى يومى وأكلت فى أفخر فندق ولاشتريت كل قاموس لسان العرب بهذا المبلغ..

وبعد لحظات:

يا خسارة يا جنيه.. يا خسارة يا سيد الفلوس.. طول عمرك قيمة وزينة وكل عيبك أنك منسوب إلينا. رغم كل ما يقال عنك ، ها أنت كالأسد فى بلدك بينما لا يصل الدولار إلى أن يكون أرنبا فى بلاده.. لوكنت منك لغيرت جنسيتى لأن الحياة مع ناس لا يعرفون قدرى ظلم.. مالك والله أيها العزيز حتى يجرى بك التعساء أولاد الحرام ويدللون عليك ويبيعونك بتراب الفلوس.. يهبط أولئك السفهاء بمقامك لكى يمولوا شركات تافهة مثلهم تستورد صبغة شعر حينا وكريم بعد الحلاقة حينا آخر. والذين يشترون صبغة الشعر لا يدرون أنهم يدفعون المال فى خليط من الحنة وجوزة الطيب يباع بقروش فى الغورية، والذين يشترون كريم الأفترشيف أصداغهم من جلد عتيق يحتاج إلى فرشة بلاط لا إلى كريم.. ومن هذا يبهدلون الجنيه ويهربونه بين الجورب والحذاء! يذلون أنفسهم وعملتهم وبلادهم وعقولهم! حقًا إنك عزيز أذله قومه! ولكن لا عليك أيها الجنيه فحالك حال كل عزيز عندنا ، ولو أن قاعة التروبوليتان كانت فى القاهرة لانتحرت كما انتحرت دار الأوبرا عندنا بالنار ، ولو أن فيلم الفيديو «الخاص جدا» كان موجودًا عندنا لألقوا الجنيه على أقدامه وشاهدوه حتى بدون السم الهارى الذى يقطع مصارينهم.

□□□

ويتفلسف عندنا جهابذة الاقتصاد ويهلكوننا بنظريات وآراء ومذكرات خلاصتها فى النهاية ودون مجاملات – أن الجنيه غلبان فى لجة البحر غرقان ، وأننا لكى ننقذه ونخرجه إلى شاطىء الأمان فلابد أن نضع

سياسة طويلة المدى مدتها قرن أو قرنان ونحن ياسيدى قوم مهذبون نحترم العلم والعلماء والخبرة والخبراء وخصوصًا إذا كانوا من طينة الوزراء وحملة شهادات الدكتوراه.

وعندما يتكلم عبد المنعم القسيونى وعبد الجليل العمرى وعلى الجريتلى وحسين خلاف وإبراهيم حلمى عبد الرحمن فلابد أن نرهف السمع ونقفل الفم ، فهنا أمجاد تتكلم وخبرات وخيرات كل كلمة منها ضربة معلم.

ولكنى بكل أدب واحترام أرفع سبابتى وأتعلق بالحجة التى يتعلق بها أمثالى من الجهلاء بالاقتصاد وشئون المال وأقول: نقطة نظام يا سيادة الرئيس ..

فإذا أذن لى رئيس مجلس الحكماء قلت: أيها السادة أن المشكلة اقتصادية حقًا والخزانة المصرية حالتها كرب ، هذا صحيح ، والحكاية طويلة ، بدأت بعد وفاة سيدنا يوسف عليه السلام ، وهو أعظم وزير مالية فى تاريخ مصر لأنه سدد الديون ونفذ مشروع ترعة اللاهون وبحيرة قارون وترك خزانة مصر عامرة بالذهب.

ولماذا نجح سيدنا يوسف عليه السلام فى علاج لداء الإفلاس وهو فيما يبدو من الأمراض المتوطنة التى سكنت مصر ربما قبل أن يسكنها المصريون.

لأنه يا سيدى الرئيس - وحلمك علىّ شوية - كان نبيًا ، والنبى معلم، والمعلم قد لا يفهم كثيرا فى الاقتصاد ، ولكنه يفهم فى الأخلاق والحكمة وطبائع الناس.

ومشكلة الاقتصاد المصرى أن الإنسان المصرى فى حاجة إلى من يعلمه ويربيه ويفهمه دروسا بسيطة جدا فى قيمة القرش وفى تدبير المال ، وعيب والله يا سيادة رئيس اللجنة أن يكون إلى جوارنا بلد يسمى لبنان يخوض حربا أهلية خبيثة. منذ سنة ١٩٧٦م ومع ذلك فعملته لازالت

متينة البنيان ، والليرة اللبنانية لازالت إلى يومنا هذا عملة صعبة صلبة. بينما عملتنا متمددة على الرصيف كأنها مخلوق بدون عمود فقرى.

والسبب أن اللبنانى رجل تعلم فن صنع الفلوس بينما المصرى لا يتعلم من فنون الاقتصاد إلا فن صرف الفلوس.

وعيب الجنيه المصرى هو الإنسان المصرى.

وإذا أردت علاج الجنيه المصرى فلابد أن تعالج الإنسان المصرى أولا والمشكلة هنا مشكلة تربية وتكوين إنسانى.

– إزاى؟

أنا بقى – أصلى مدرس – وسأقول لك إزاى.

إن أزمتنا الاقتصادية ناشئة – بكل بساطة – من أننا نستهلك أكثر مما ننتج ، ولو أن كل مصرى عمل بأكله وطعامه وأكل أهله وطعامهم لكان اقتصادنا كله سليما قويا كالحديد.

ولو أن كل مصرى أخذ بقدر ما يعمل فقط لما كانت بنا حاجة إلى أن نقترض دولارا واحدا.

ولو أن كل مصرى دفع للدولة ولو نصف الضرائب المستحقة عليه لاعتدلت ميزانيتنا ولما تعرضنا لتلك المشاكل التى تواجهنا على كل متر من الطريق والناس عندنا كثيرون ، وهم أذكياء قادرون على العمل والإنتاج ، وقادرون على أن يغرقوا الأسواق العربية والأفريقية جميعا بالإنتاج المصرى الجيد الرخيص. فتعال معى ننظر ماذا نفعل بأنفسنا وبمواطنينا؟

إننا ندلل العمال تدليلاً ونشجعهم على الكسل والتراخى لأننا مع الأسف الشديد لا نفرق بين من يعمل ومن لا يعمل ، ومن يتقن ومن لا يتقن.

وكل قوانين العمل والعمال عندنا قوانين سياسية وليست قومية.

من ثلاثين سنة ونحن ندلل العمال ونؤذيهم بحنان زائف لا خير فيه.

وأنا أريد بالعمال هنا الشعب كله ، فأنا عامل والوزير عامل والميكانيكي عامل والطبيب عامل والمهندس عامل وحارس العمارة عامل.

والقوانين التي يجري العمل عندنا بمقتضاها لا تخدم إلا العامل الكسول والتنبل والفهلوى والبلطجي والذى لا يساوى.

لأن العامل الذى يساوى ليس فى حاجة إلى قوانين عمل تحميه ، لأن حمايته عمله ، ونحن نعيش فى زمن من المستحيل عليك فيه أن تظلم عاملا كفئا أمينا يقوم بواجبه وقد انتهى العصر الذى كان الناس فيه فى حاجة إلى قوانين اشتراكية تحمى العمال لأننا جميعا نجرى وراء العامل الجيد ، وكلنا مستعد – دون قوانين – لأن ندفع خمسين أو ستين جنيها مع الطعام والشاى لشغال جيد أمين أو سائق رحيم يحافظ على السيارة أو طاه يعرف كيف يعفينا من عناء المطبخ وغسيل الأطباق ، وهذه كلها حقائق تعلمها وتطبقها بلاد فى مثل حالنا ، ولكنها عرفت كيف تجعل كل إنسان يعمل وينتج بما يعدل طعامه وحاجاته ويزيد.

والصين فيها ما يزيد على ألف مليون مواطن ، وقد عرفت الصين كيف تجعل هؤلاء جميعا يعملون وينتجون وعرفت كيف تفهم من لا يريد أن يفهم من المواطنين أن وظيفة الدولة ليست تدليل الناس بل إفهامهم أنهم فى مرحلة ينبغى أن يكتفى فيها كل صينى بالضرورى من حاجاته ، وأنه لم ينال هذه الضروريات إلا إذا استحقها بعمله فإذا فهم ذلك بالذوق كان بها وإلا فهناك وسائل كثيرة لإفهام من لا ذوق عنده ولا إحساس.

وفى كوريا وتايوان والفليبين بل فى الهند تعمل الحكومات على تدريب الناس على كل حرفة وعمل ولا تقبل إلا العمل الجيد ، وتعتبر كل عامل مسئولا عن الماكينة التى يعمل عليها ، لأن هذه الماكينة جزء من الثروة القومية ، والإضرار بها عدوان على الوطن وحقوقه ، ومن يعتدى على الوطن وحقوقه فلابد أن يلقى شر عقاب فتعالوا ننظر ماذا نعمل نحن..